

الفكر النقدي و نقد مشروع الحداثة عند أركون

عبد القادر بودومة¹

« في الواقع أن الفكر الإسلامي الحالي لا يزال يستعصي على الحداثة، أو قل لا يزال يقاوم تعاليمها وإنجازاتها الأكثر رسوخا وصحة، إنه لا يزال يقاومها باسم «الدين الحق» الذي يرفض أن تطبق عليه أي مراجعة تاريخية أو دراسة نقدية...»

محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل.

دار الساقى، الطبعة الأولى، 1999 ص 191.

المقدمة:

يعرف المشهد الثقافي العربي حركة إبداعية متميزة، و مغايرة عن تلك التي ألفنا اكتساحها للساحة الفكرية العربية بخطاباتها المضخمة و المفخمة، المليئة بالخيبة، و الهزيمة، و الفشل. خطابات تكرس فكرة دنو الكارثة، فهي في حالة استنفار قصوى مع ما يجري من أحداثه على مستوى الواقع، لكن و في مقابل هذه الخطابات بدأ يتجلى في الأفق خطاب مختلف يحمل بهاءه و مرحه، و أماله و هو

¹ أستاذ الفلسفة بجامعة تلمسان

يعانق بآنس و ألفة الحياة و ما تحمله من مأساة و تراجيديا، و برؤية نقدية جذرية يحاول التغيير من شأن الأوضاع المتأزمة. إن مثل هذا الخطاب الآخذ في التشكل له القدرة على مواجهة صدمات الواقع، لكونه لا يتعامل معها من منطلق فكري، تأملي محض. و لا يقترح عليها بالإضافة إلى ذلك مشاريع ضخمة جاهزة، بل يسعى إلى فهم و تشخيص و تركيب الواقع وفق ما تنتجه العلوم الاجتماعية و الإنسانية المعاصرة من ترسانة منهجية هامة. إن الخطاب المختلف، خطاب الحفر، و التفكيك، و التنقيب، و النقد، في أعماق النص و ما تراكت فيه من طبقات تشكلت في داخله من أزمنة طويلة فغدت حججا و تسترا للحقيقة. إنه يتعامل و يحذر مع ما يعرفه العالم من تحولات كبرى جذرية في معظمها، يسعى من أجل مساقاة الحدث الكوني الراهن (Mondialisation) و الإمساك و التحكم في التطورات السريعة الفائقة عن الواقع Hyper-réel خاصة تلك المتعلقة بشبكات الإعلام المتطورة، كالانترنت Internet، إن هذه الظروف أرغمت المفكر. الباحث الناقد لنتائج الحداثة، و الذي رسخ ملامحه المفكر الجزائري الأصل «محمد أركون»، المفكر الباحث يأخذ، على معروف بقراراته الحاسمة، و بشجاعته البطولية المدهشة في أخذه لمواقف صريحة تجاه أزمت كبرى يمر بها وطنه، أو مجتمعه، لا يتردد، لا يخاف. قراراته كلها تسير و يحذر حركة

«أركون» ذلك المفكر الباحث النوعي، لا يزال يحيا وفيما لمشروعه الفكري الضخم، القائم على «نقد العقل الإسلامي» بصورة حدائية، نقدية، عقلانية، وهي مجهزة بوسائل علمية تمكنها من بلوغ مثل هذا الهدف، وهو المفكر المتميز: لكونه أولا مفكر انبثق من المؤسسات الأكاديمية الأوروبية المعروف عنها صرامتها، وهو ثانيا مثال العقل الحر، الراض للجاهزية و التسطيط، إنه المفكر الباحث الذي يعمل على إيجاد حلول لقضايا مجتمعاته العربية الإسلامية، وبصورة خاصة بلده «الجزائر» الغارق في صراع أنتج تمزقا لجسد الوطن الواحد.

على الرغم من تنكر هذا الأخير له (أي لمحمد أركون) فلحد اليوم و منذ السبعينات لم نسمع عن شيء اسمه تكريم لهذا المفكر النوعي، من طرف أبناء وطنه، في حين يكرم في بلدان عربية و غربية. لربما كان هذا هو قدره، أن يتنكر له وطنه. إنه المفكر الباحث الذي اقترون به إبداع لعلم أصبح قائما بذاته في أكبر جامعات أوروبا (السربون) «علم الإسلاميات» Islamologies. إنه المفكر الباحث الذي لا يزال يخوض معارك ما انتصر فيها لحد الآن، و ما انهزم. إنه يعيش و لوحده فرادة صراعه مع جهابذة الاستشراق الكلاسيكي و شيوخ الأرثوذكسية الدينية، إنه المفكر الباحث الذي نعت بأقذر النعوت و أقبح الأسماء، فَلَجَّةُ الشتم، و القذف، إلى درجة الإعلان عن جواز سفك دمه، بين أبناء قومه،

الحدث الكوني. إنه الكائن الفاعل بتعبير «علي حرب»¹ لا الكائن المرتكس. إن المثقف العربي المعاصر الذي يدعو «أركون» إلى إعادة تشكيل مهامه، و تقديم له معالم جديدة تمكنه من التعامل و بصورة جدية مع التطورات التي يعرفها العالم، كما ينبغي أن يرفض الهشاشة، و الدخول في مواجهة و سجال سلبي مع الواقع. عليه أن يكون بمثابة الكائن الإثباتي الذي يساهم في بناء العالمية و ضمن هذا المطلب يندرج المشروع الفكري للباحث المفكر «محمد أركون» أين نجده و في العديد من أعماله يؤكد على إلزامية التحضير لهذا الكائن الفاعل و الذي أدرجه ضمن مشروع المفكر الباحث، المتسلح بترسانة منهجية ضخمة في إطار فهمه و استيعابه للعلوم المعاصرة. إنه ذلك الذي يفكر السؤال و لا يكتفي فقط بالبحث عنه، وفق مناهج علمية و نقدية صارمة، تأويلية في معظمها، و لربما نبه هاهنا أنه من الصعب الكتابة عن فكر مفكر مثل «أركون» لكونه وجدناه يحمل ملامح صرامته المعهودة عليه، و التي نمتها فيه الجامعات العالمية الكبرى، و لقد، في العدد من المرات، وقع عملنا هذا في مطبات عديدة و هو يمارس فعل القراءة الثانية (الكتابة) على نصوص «محمد أركون». و نتمنى أن يتسع صدر مفكرنا و هو يقرأ عملنا هذا و لربما هذا ما عهدناه عليه و هو صديقا لكل أولئك الذين يبحثون و يحملون رغبتهم في البحث و الدراسة.

1 علي حرب: حديث النهايات. فتوحات العولة و مآزق الهوية - المركز الثقافي العربي - الطبعة الأولى - 2000 - ص 7.

كنا أكثر صدقا في قولنا هذا: أن «محمد أركون» المفكر الذي لم يأخذ لحد اليوم موقعه اللائق و المناسب لمقامه العلمي، داخل جامعاتنا و مؤسساتنا الثقافية، و الإعلامية!! و ندعوا إلى إنقاذ الموقف بالالتفات إلى مفكرنا، و باحثنا مادام لا يزال قائما بيننا روحا و جسدا، و إلا سيأتي يوم سنندم على غيابنا عنا². إننا نرفض التهرب من البوح عما نكنه من محبة فكرية لمفكرنا، و لربما كان جديرا بالإطراء، لما لا؟! عن أولئك المعدودين على الفكر و الثقافة داخل المجتمع العربي. الإسلامي فإن تكلموا فلا يقولون إلا الحماقات عن هذا المفكر الذي فرض احترامه العلمي داخل أكبر جامعات الغرب.

إن هؤلاء الذين يملئون الجو بصراخهم عن الإسلام و يرتكبون باسمه أكبر الكبائر. و كل ما نهى عنه الإسلام الحنيف، و الدين الحق ليس لهم أي حق في اتهام كبار العلماء و المفكرين...» محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد. ص311. يدعو «أركون» و من داخل الجامعات الغربية إلى إعادة النظر في مكانة الإسلام كدين توحيدي، شأنه شأن اليهودية و المسيحية، فاستبعاده لا يجد له مسوغا، و لا يمكننا غض الطرف عن مكانته، فما الرجوع الدين الذي تشهده المجتمعات في

لكنه استطاع و على جهات أخرى الدخول في مناقشات و سجلات مع كبار علماء الاستشراق، مثل تلك التي سجلها مع شيخ الاستشراق الكلاسيكي «روجي أرندالز Roger Arnaldaldez»¹ الذي يصير على رفض توظيف المناهج العلمية المعاصرة لقراءة التراث الإسلامي، لكن «أركون» يؤكد بدوره على أن أهمية الفكر الإسلامي و فاعلية دراسة تراثه و التمكن من خصوصية تجربته التاريخية الأولى، ليست مجرد أماني، أو وعود، و إنما هي موقفا حداثيا يحمل بطولته التاريخية. ينبغي على كل مفكر. باحث واثق من حرية عقله و من قدرة إرادته، أنه بإمكانه إنتاج فكر متميز، لربما تقولون أننا نضخم و نفخم من شأن مفكرنا. محمد أركون. نقول أن مكانة هذا الأخير لا تحتاج إلى مثل هذا التبجيل و التبخير. إنما نؤكد أن سلوك باحثنا هو أصل هذه الوقفة، التي نود أن نقتفي أثرها لكي لا تضيع منا، كما يجب أن نزيل عن الساحة الفكرية تلك الأحكام التي تبخس و تتفه أعمال مفكرنا، فعيب كل العيب أن يختزل الحديث عن مفكر مثل «أركون» بالقول «أنه لم يقد شيئا جديدا لمجتمعاته الغارقة في التأخر!!» لقد سئمنا من هذه الأحكام الناقمة على الإبداع لأصحابها الغير قادرين على الإتيان بالمثل، فنجدهم يكتفون فقط بالعويل و الصراخ... كما أننا عاجزون على صد الكتابة عن البوح بلا منطوقاتها تجاه مفكرنا الجاد، و لربما

2 «الدعوة موجهة بصورة أخص إلى دولة الجزائر، بلده الأصلي، لابد من خلق مخابر علمية، بحثية، حول المشروع النقدي لـ «محمد أركون» و الكف عن ثقافة التتفيه و التناسي الذي يتبناها المثقف الجزائري... إننا نعتقد أن عنف الإرهاب الذي مزق الوطن سببه المباشر هذا العنف الممارس على الرأسمال الرمزي بتعبير بيير بورديو.

1 أنظر بهذا الصدد: محمد أركون - الفكر الإسلامي - نقد و اجتهاد - ترجمة و تعليق: هاشم صالح - دار الساقي - الطبعة الثالثة - 1998 - ص 309.

مسوغات عديدة إلا دليلاً جازماً على أهمية مثل هذه الصورة، الأمر يتعلق بالديانات التوحيدية كلها دونما استثناء، علينا أن نجد طريقاً يوجد خطاب المحبة، والغفران والتسامح نحو كل من يدين بهذه الديانات التي فيها ما يجمعها ويوحدها أكثر مما يفرقها. فلقد آن الأوان لكي يسمع الغرب من خلال أعلى المؤسسات العلمية الأكثر عراقية، صوت الإسلام وحضارته، وتراثه التاريخي الطويل.

أركون، والتأويل التطبيقي:

انفتاحات «أركون» على مناهج العلوم الاجتماعية، والإنسانية المعاصرة مكنته من إزاحة، وزحزحة مشروعه العقلاني نحو تفعيله أكثر، وذلك بتدعيمه بعناصر و بأواليات جديدة ساهمت في و بشكل رائع في ابتعاد الخطاب أو النص الأركوني عن الهشاشة، أمام ما يواجهه من نقد. لقد بدأ مشروعه يعرف نوعاً من الانتقال و القفز على السّجال من نقد العقل (الإسلامي) إلى نقد النص الإسلامي، أو نقد خطابه، دون أن يتخلى عن مشروعه الأولي المتعلق بنقد العقلية الدوغمائية التي نسجت أسيجتها المنغلقة في إطار ما أسماه بالأروذوكسيات. إن النص عند «أركون» طبقات مترسبة، تراكمت عبر العصور و هي تحمل معارف و أفكار جُعِلَ منها من فرط ما غدت ثابتة مصدراً لكل حقيقة و يقين معرفي، و منه ما كان إلحاح مفكرنا على الاشتغال و بصورة فاعلة

بالمناهج المعاصرة لأجل سبر أغوار النص، أو اختراق نسيجه، إنها مناهج تعمل بمثابة المفاتيح التي تمكننا من فهم النص و أسرار الخطاب، و عن طريقها نرغم النص على البوح و قول ما سكت عنه، و بالتالي التمكن من فهم و تشخيص و تركيب من جديد بنية النص. إن الانسداد الذي أصبح يعاني منه نقد العقل من الناحية الإبيستيمولوجية، أرغم المفكر الباحث على الانفتاح على التشريح، و التفكيك، و التنقيب لفهم محنة و مأزق التراث الإسلامي. إنه و لما كان العقل الإسلامي واحداً من الوجهة الإبيستيمولوجية، أي من حيث المسلمات التي ينهض عليها، و من حيث القواعد المنهجية التي يستخدمها في النظر و الحاجة، و لما كان من الصعب على الطرح المعرفي الإبيستيمولوجي و بصورة جادة و جدية تناول القضايا الجوهرية للمجتمعات العربية الإسلامية كانت إلزامية طرح ضرورة القراءة التفكيكية لقدرتها على تناول مسألة الهوية La question de l'identité، و مسائل التراث على الخصوص، إذ تتمكن من هذا الغائب و الذي لا يحضر إلا عبرها. إنه الجانب الأنطولوجي Ontologique إن التفكيكية تميط اللثام عن السمات المشتركة لكل العقائد، و منه كان الانفتاح على سؤال كيفية قراءة النص المقدس. القراءة هاهنا باعتبارها ممارسة تأويلية مندرجة ضمن التأويل التطبيقي الذي يضم العديد من الآليات كالفهم، و النقد، و الترجمة، و

التفكيك، و الحفر...قراءة تعمل على فك النص التراثي من القيود التي فرضت عليه من قبل الأصوليات المنغلقة. إن الممارسة النقدية عند «أركون» لا تحمل أبعادها السلبية، إذ لا يفهم النقد عنده فهما حرفيا كأن يأخذ دلالة الهدم و التدمير..فالنقد الأركوني لا يقوم على تصفية الحسابات و لا يفضل المهادنة، وعقد صفقات فاسدة مع السلطة. السلطة لا هوية لها. من أجل مصالح سلطوية. إن النقد الممارس على التراث هو النقد المنفتح على آخر مكتسبات علوم الإنسان و المجتمع، و خصوصا مفهوم المتخيل L'imaginaire و الأسطورة Mythe، أو الحقائق السوسيولوجية. لم يكن «أركون» مركزيا في قراءته للعقل الإسلامي.

إن قراءات نقدية لأعمال «أركون» حاولت إلصاق مثل هذه الصفة. فجعلوا من نقد للعقل متسما بمركزيته المفرطة، عندما جعل «أركون» من العقل الإسلامي المعنى الوحيد بالنقد، و بالتالي ألحق مفهوم العقل بنزعة أو انتماء عقيدي الإسلام. يؤكد صاحب مشروع نقد العقل الإسلامي أن معنى هذا الأخير (أي العقل الإسلامي) لا يحمل خصوصية عرقية أو دينية، و غير قابل للتفرد، مثلما اعتقد مفكر نقد النقد¹، الذي حاول أن يبرز دوغمائية الممارسات النقدية و مركزيتها

1 أردنا هاهنا أن ننبه إلى ضرورة الرجوع إلى القراءات النقدية التي قام بها المفكر اللبناني علي حرب في نقده لمشاريع أصحاب العقلانيات الكبرى. أنظر في هذا الشأن كتبه: نقد النص عن المركز الثقافي العربي.

تلك التي قام بها «محمد أركون». يشير هذا الأخير و في العديد من كتاباته: «أن العقل ملكة مشتركة لدى كل البشر، و إنما التميز أو الفرق كامن كلية في النعت، أي الإسلامي. نقصد بذلك أنه كان في المعنى القرآني و فيما كنت قد دعوته بتجربة المدينة...»² و لعل أهم ما يميز الممارسة النقدية التي يؤكد «أركون» ضرورة إعمالها لأهميتها الإجرائية و الفاعلة، تلك المتعلقة بالقراءة الأنثروبولوجية النقدية. الأنثروبولوجيا كعلم يعمل على الانفتاح على نقد ثقافات العالم دون استثناء، و منه دعوته إلى الانفتاح على الضفة الأخرى L'autre-cap و الدعوة موجهة على الخصوص إلى المجتمعات الغربية التي استفادت من الأنثروبولوجيا بتوظيفها لها بصورة انتقائية، أي أنه استثمر فيها الجوانب التي مكنته من ترسيخ سيطرته و تمديد هيمنته على ثقافات العالم التي لا تنتمي إلى سياقه التاريخي، و أنظمتها العقلية، أين امتنع عن الانفتاح على ثقافات المجتمعات المهيمنة و لم يحاول فهم خصوصياتها الإنوجادية، و منه كان إصرار «أركون» و من داخل مجتمعات الغرب المهيمن على ضرورة إضافة البعد النقدي على الأنثروبولوجية و ما موقفه إلا تأكيداً على رفضه للتمهيش و الإقصاء الممارس من قبل الغرب، و يبدو لنا موقفه المستند على جذرية النقد و التطبيق المنهجي للحفر الأركيولوجي، و النقد الجينيولوجي، و

2 **محمد أركون: من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي - دار الساقي - الطبعة الثانية - 1993 - ص18.

الملاحظ أن أهم معضلة صادفت «أركون» وأعاقته ولا تزال تعيق إتمام مشروعه النقدي هي معضلة المنهج، وإنه يعمل لأجل حسمها، لينتقل إلى فرض ضرورة إمكانية توظيفه. إن مهمته إذ تكمن في العمل على تخطي مثل هذا العائق ثم العمل ثانية على تطبيقها وممارستها، دون أي تشكيك أو تأليب من طرف أصحاب الأصوليات القتالة، أصبحت المواقف الراضية على «أركون» استخدامه لمناهج العلوم الاجتماعية المعاصرة تشكل عنصر قلق بالنسبة إليه، بحيث تمثل لربما إليه أهم عائق أمام إنجاز عمله الفكري، و إنجاح بالتالي مسعى الممارسة النقدية على مستوى الواقع الفعلي، إنهم يرفضون إجراءات تطبيق المناهج على التراث الإسلامي لأن في اعتقادهم أنها تسيء فهم الإسلام بدل توضيحه، فهي (أي المناهج) الهوة بين الفهم وتشخيص حقيقة الظاهرة الإسلامية والإسلامية بصورة عامة.

و أمام هذا الرفض والمعارضة انخرط المفكر. الباحث كلية في نسج استراتيجية شاملة للتدخل العلمي، من أجل إيجاد المفاتيح التي تمكن بدورها من فتح مغاليق العقليات المغلقة، و تحريرها من أصولياتها المكرسة للانغلاق العقيدي، و التي تعمل على إنتاج و توزيع خطابات مضخمة قائمة على التهميش و الإقصاء، مانعة دخول فكر الحداثة ضمن ما تكرسه في مقابل ذلك من نصوص دينية مبجلة، و مسيجة بالشعارات الإسلامية التقليدية،

التدمير التفكيكي على تراثات المجتمعات المختلفة بمثابة الموقف الحداثي، لا يزال قائما عند مفكرنا يلزمه منذ أن أعلن خوض مغامرة العقل الإسلامي¹ في الوقت الذي بدأت تنبثق فيه، و تطفو على السطح قراءات عديدة تتفه، و تسطح و تنكر على «أركون» مثل هذا الإنجاز الهام في الممارسة النقدية، التي تعمل على حرمانه (أي مشروعه) من أحقيته في توظيف مناهج العلوم المعاصرة. لكن مثل هذه المواقف لم تزد «محمد أركون» إلا إصرارا على الذهاب قدما إلى نحو تأكيد إرادته في إتمام مشروعه المعرفي و العلمي، القائم على إفراغ التراث الإسلامي و شخصياته من حالة التبجيل و التبخير، و نزع سمة التعالي و المثالية عن النص المقدس و عن النص عموما، و إحالته على أبعاده الواقعية و احترام سياقاته التاريخية، لأجل إنجاز القراءة التاريخية Historicité. إن التراث يحمل في ثنايا العديد من الظواهر، و لا يمكننا أن ندرسها إلا في إطارها الفكري، و في سياقها التاريخي، و أن أية محاولة فهم تبتعد عن هذين الخطين تغدو مجرد قراءة واهية لا تنتج و لا توزع سوى أوهامها و توهماتهما، و هذا هو حال النصوص التي نسجت العقول الأورثوذكسية المسيحية بدوغمائها الصارمة، فكان لزاما على «أركون» أن يعمل لأجل إيجاد و بصورة واضحة مغاليقها لفتحها بمفاتيح التأويل التطبيقية L'herméneutique appliquée

1 محمد أركون: الفكر الأصولي و استحالة التأصيل - دار الساقي - 1999 - ص 234.

حديث، خصوصاً في المجالات التي تتيح لنا فرصة إعادة التقييم النقدي للتراث، فوحدها الدراسات النقدية و الحفرية و التفكيكية للتراث قادرة على كشف جوانبه الإيجابية و بيان قيمته و قيمه الحقيقية، و تفتح لنا المجال أمام تجاوز سلبياته، فليس كل ما في التراث يمكن أن نُؤمِّنَ له، إذ ثمة ما يعيق، و لا يزال، النهضة المنشودة من قبل خطاب الفكر العربي المعاصر. لا يقرأ التراث إذا إلا قراءة تأويلية، إن «أركون» لم يكتف في حلقة التأويلية على آلة واحدة لكون عمله يندرج ضمن مهام صراع التأويلات Le conflit des interprétations. للتأويل مكانة فعالة في فهم حقيقة الوحي، ذلك أنه لا يقف عند مجرد الحفر في الطبقات المترسبة و المؤدية إليه أي إلى لحظة التأسيس الأولى، أو ما يسميه «أركون» بالحدث القرآني، بل يدعو إضافة إلى ذلك قراءته (الحدث القرآني) وفق سياقاته التاريخية، الواقعية، لقد كان من المفروض أن يتم إنجاز خطاب حول التراث من قبل مفكري النهضة، و أصحاب المشاريع الكبرى، لكن كان من الأجدر أن يجدوا و يبدعوا كفاءات جديدة في قراءته بدل الاكتفاء فقط بالمطالبة بالعودة الحرفية إليه أو التمسك به اعتقاداً منهم أنه بإمكان مثل هذه النداءات و الخطابات المكرسة للعدائية تجاه الغرب و أحداثه، أن ننجح في تفردنا بمشروع فكري حضاري يضاهي أنوار أوروبا.

تمدعي من علياء نصها الأعظم الذي يتخذ من القلاع و الحصون مكاناً آمناً له، قول الحقيقة، في الوقت نفسه تعمل على حجها (أي حجب الحقيقة)، إن الممارسة التأويلية تمنح لنا آليات فهم استراتيجية النص التي و مهما تعددت و تنوعت لا تفضي أبداً بكل مدلولاتها، و لربما هنا تكمن قوة النص، في قدرته على إخفاء حقيقته، كما تكمن في حجبه و مخائلته، لا في إفصاحه و بيانه في اشتباهه و التباسه لا في إحكامه و أحكامه في تبيانها و اختلافه في وحدته و تطابقه. إن كل تطابق للهوية يحيل إلى فتوحات الاختلاف، إذ كلما ازداد الحجب ازدادت إمكانات الكشف حسب «علي حرب». و تتوفق إمكانات القراءة، و ثمة قراءة لا تستنفذ قراءتها، وهذه هي خاصية النص القوي، إنه لا يقول الحقيقة¹، فمن الصعب التحكم أو المسك بصورة نهائية بالنص و ما يحمله من معاني و مدلولات، فالمعنى يختلف دوماً عن نفسه باختلاف الكلام و التعبير عنه، و لذا فنحن ننتهك المعنى بقدرما نحاول القبض عليه، و نتوه عن الحقيقة بقدرما ندركها، فهل من إجابة عن أسئلة الحقيقة، فمن يقتل من في الجزائر؟ و من ينفي من؟ و من يسلب هوية من و من المسؤول عمن؟ إنه و حسب «أركون» ينبغي على الباحثين و المفكرين العرب أن يقوموا بالاشتغال الهادئ على المفاهيم و المصطلحات، داخل اللغة بالذات و ذلك قبل استخدامها من أجل نشر فكر علمي

1 أنظر: علي حرب - نقد النص - المركز الثقافي العربي - 1993 - ص 13.

إن الرجوع إلى التراث بالنسبة إلى «أركون» لا يكمن في إعادة جرد ما فيه من كنوز و ذخيرة، وإنما هي الدعوة إلى إيجاد الكيفية لأجل قراءته¹. إن سؤال التراث مقترن بسؤال القراءة، القراءة هي اللحظة التي تمكننا من اختراق و تجاوز و إزاحة للمنسي وللمتنكر، وللامفكر فيه. إن المواجهة التي ينبغي أن نقيمها في الإسلام كما في كل المجالات الأخرى مرتبطة كلية بالوعي الكامل بالحالة الحاضرة للمعرفة العلمية المعاصرة.

الحداثة و نقد الحداثة:

حديثنا عن الحداثة Modernité لدى المفكر الباحث «محمد أركون» صاحب مشروع العقل المنبثق الذي يقدمه كـ «معطى أولي» لتجاوز عقل الحداثة، و الذي لن يتحقق إنجازه إلا إذا تم إدراج مناهج العلوم الاجتماعية و الإنسانية المعاصرة ضمن آليات فهم و نقد العقل الإسلامي، داخل مجتمعات الانغلاق الأورثوذكسي المسيحي بإيديولوجيات التحرير و الأصول و الهويات الدوغمائية.

إن مشروع «أركون» النقدي يحمل كل عناصر اكتماله مفهوم الحداثة، لدى كان نقده لها، له أكثر من تبرير، بالإضافة إلى ما يحمله من تجاوز لطروحات حداثة غير منجزة La est un projet inachever ' modernité التي نجدها عند العديد

من المفكرين أمثال: «يورغن هابرماس» و «لوك فيري»، إن الحداثة عند «أركون» تجربة ذاتية، موقف بطولي قبل كل شيء، و هنا تكمن أصالة مشروع «أركون»، إنه لم يطرح مفهوم الحداثة من زاوية أكاديمية، أو مؤسساتية، أو معرفية، بل ساهمت تجربته الذاتية المتأزمة التي عاشها و لا يزال على بلورته من جراء مواقفه البطولية المتألقة نحو بلوغ دال الحداثة المجهول، فغدا اسمه بالنسبة إلينا مقترن بمجهول الحداثة البودلييري، لقد اختارته الحداثة لكي يكون فارسها، و لا تختار الحداثة و لا تهب نفسها إلا لأشجع الفرسان. ننبه هاهنا أنه من الضروري الانفتاح على التجربة الأنطولوجية و الذاتية لـ «محمد أركون» و التي تعرف فعلا قلقها، و تمها، و شرودها، و تلكم هي سمات الفارس المغامر، و المخاطر بذاته، تحمله جرأة الإعلان عن الرفض لكل أصنام الفكر و المكان. الحداثة عندنا تجربة ذاتية، أنطولوجية، قبل أن تكون مجرد مشاريع قومية، وطنية، يسعى المفكرون في إيجاد معالمها محاولين ترسيخها داخل مجتمعاتهم، و هي ليست مجرد قراءات منتحلين الفكر و أفكار و معارف المبدعين، إن «أركون» قبل أن يكون داعية، و حامل رسالة بحداثة الغرب داخل المجتمعات العربية. الإسلامية، مثلما يحلو لبعض النقاد التأكيد على أن «أركون» يدعو إلى مجازاة و مسايرة خطوة بخطوة حداثة أوروبا (الغرب) لأجل بناء حداثة متفردة خاصة بنا، فهو صاحب تجربة

1 **أنظر محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي - المركز الثقافي العربي - مركز الإنماء القومي - الطبعة الثالثة - 1998 - ص 88.

أنطولوجية فريدة، بدأنا نلمح ملامحها و أبعاده ضمن فقرات كتابه: «الفكر الأصولي و استحالة التأصيل»: و مثل هذا المنحى أدهش المشرف على ترجمة أعمال «أركون» «هاشم صالح» إذ لاحظ هو الآخر أنه بدأ يتجه في كتاباته نحو ترسيخ تجربته الذاتية «من الواضح. يقول هاشم صالح. أن «أركون» يتجه أكثر فأكثر نحو الحل الصوفي على المستوى الروحي، أي الصوفية كانعقاد للدروح من أسرها، من أسر كل القيود فيما أننا سنموت في نهاية المطاف، فليكن هذا الموت لحظة رائعة، لحظة الانعتاق و التحرير، لحظة الخلاص الأبدي، لحظة الاتجاه بالمطلق، مطلق الله...»¹ إن التجربة الأنطولوجية الآخذة في التشكل لدى «أركون» تتراوح بين لحظتين هامتين، بين لحظة المغادرة الموطنية Détériorisation هجران الوطن، منفى اضطراري اختارته له بعض القوى المنافسة من داخل الوطن الأصل. فأجبرته على مغادرة الموطن، لكن هاهو يعيش لحظة ثانية و المتمثلة في الرغبة القوية للالتحاق بالموطنية Réterritorisation حسب تعبير «جيل دولوز G.Deleuze» لربما كان هذان المساران المعبران فعلا عن التجربة الحقيقية للحداثة عند صاحب مشروع نقد العقل الإسلامي. إن تجربة «محمد أركون» الذاتية التي لا تزال لم تعرف تأججها أكثر عبر ممارسته النقدية الجذرية

1 أنظر تعليق الفكر و المترجم هاشم صالح ضمن كتاب محمد أركون: الفكر الأصولي و استحالة التأصيل - ص184.

للواقع المتأزم للعديد من البلدان العربية الإسلامية. خاصة الحالة الجزائرية التي يعتبرها «أركون» بمثابة خبرة قائمة بذاتها تفيدنا بشكل جيد في فهم صراعات القوى و كيفية تشكلها داخل المجتمع. شريطة أن نتناولها بالدراسة وفق مناهج العلوم الاجتماعية المعاصرة التي يتبناها الباحث النقدي. لقد بلغ الوضع داخل الجزائر ذروة التراجيديا. عنف، إرهاب، فوضى، عبث، تنفيه... إنها ملامح الأزمة، التي، لا يريد أصحاب المراكز في السلطة الفكرية و السياسية، و الدينية تناولها بالدراسة المعمقة، و لا يزالون يصرون على تناسها و لامبالاتهم أمام ما يحدث من انحرافات أدت إلى تمزيق جسد الوطن، فأصبح جسدا جريحا، فماذا بعد تمزيق الهوية؟؟؟ حدث هذا من جراء تركنا للأصوليات يستفحل وضعها داخل المجتمع بشكل ملفت للانتباه، ولا يكتفي «أركون» بنقد عقلية التحرير التي أنتجت تمزقا، و خيبة أمل، و وعودا وهمية، بل سيطال نقده للحداثة الغربية أيضا، إنه نقد ينم عن حركة عقل شغال يشتغل بصورة فعالة لا يتوانى في شحذ كل ما استجد من مناهج و أجهزة العلوم الاجتماعية المعاصرة، إنه عندما يتعلق الأمر بأخذ المواقف الحاسمة فإننا لربما نجد أنفسنا بعيدا عن قدرة الاختيار، إننا لا نختار قدرنا عندما يتعلق الأمر بالحداثة، قد نخسر وطننا، قد نخسر حبيبنا، قد نخسر حتى أنفسنا، لا يتبقى لنا ما يمكننا الدفاع عنه من أشياء الواقع.

لم يبق لنا سوى الهيمان و التيه و الشرود و المغادرة، حيث أقاليم الأجساد اللا أعضاء، حيث الصحارى التي تأخذنا إلى اللا. تموقع، و فيها لن تعود هناك أهمية للرجوع إلى الوطن، لا يأخذنا الحنين إليه، فعندما نبحر و نترك الوطن من وراءنا لا نلتفت إلى الخلف، لكي لا نشعر تجاهه بعاطفة الرجوع إلى الوطن، هذا الوطن الذي تنكر و لا يزال يتنكر على أبنائه حق الاعتراف بهم، وطن أساء أبنائه الظن بنا، و أساءوا قراءة فكرنا، و لم يفهموا، و لم يريدوا فهم ما كتبنا من أعمال ثقافية و معرفية محاولين إنقاذ أو المساهمة في إنقاذ الوطن من محنه، ما همنا أبدا ما يصدره أولئك النشالون سمسرة الفكر و المبادئ.

إن مواقف «أركون» كلها و دون استثناء، هي مواقف حدائية و هذا ما جعله يفضل الحديث عن أولئك الذين شاركوا في ترسيخ أنوار الحضارة العربية الإسلامية، من أمثال: «ابن رشد» و «التوحيدي» و «الجاحظ» و «المتنبي»... فالمكان الذي غادره هؤلاء لم يعد فيه عاطفة الحنين تدفعنا إلى العودة أو الرجوع إليه للمكوث فيه، فكانت ضرورة الهجرة، و المنفى و المغادرة، مطلبا يحمل دلالاته الجوانية Interiorité، إن «أركون» لم يكن سوى فارسا من الفرسان الذين لم يتوقف «كريتيان دوتري» عن رسم خطهم، فرسان ينامون فوق حصانهم على رماحهم متكئين على ركائهم، و لم يعودوا يعرفون اسمهم و لا اتجاههم، و لا يتوقفون عن الانحراف في

سيرهم، و يصعدون عربة أي عربة لا بهم، يصادفونها و لو كانت ستمس شرفهم. إنها قوة المغادرة الوطنية للفارس الباحث. المفك الجوال، الراكض ذهابا و إيابا، نحو ذاك المجهول الذي لم يكن سوى مجهول الحداثة البودلييري، رسام الأرملة الحديثة.

لقد بلور «محمد أركون» اصطلاح «الإسلاميات التطبيقية» منذ عام 1970، و كان قبل ذلك قد دعى إلى نقد العقل إلى الرجوع إلى «نقد العقل الإسلامي» و كبدائية لتحضير مشروع حداثة عربية. إسلامية قائمة على العقلانية النقدية، حاول أن يتناول هذا المشروع داخل وطنه «الجزائر» مباشرة بعد الاستقلال (1962) أين عمل على تشكيل نواة مخبرية بحثية أولية داخل الجامعة الجزائرية الناشئة و الأخذ في التشكل، لكن قبول مشروع و اقتراحه بالرفض، و عملت بعض الأوساط المعدودة على الفكر و المعرفة بالتشهير به و نعتة بنعوت العدائية و العدوانية، فراح «أركون» عدوا للإسلام و عدوا للتحريض، و هو المفكر المشارك و المساهم في إرشاد العقول الحرة لقراءات جيدة للإسلام، و هو المشارك في ثورة التحرير، فكيف يغدو عدوا للوطن و للدين...؟! و ضاعت بالتالي من يد مفكرنا فرصة ترسيخ مثل هذا المشروع العقلاني، فكان عليه لحظتها أخذ موقف بطولي حدائي يكمن في إصراره على إنجاز عمله مهما كلفه الأمر من معارك، و من مواجهات.

لقد تأسف «أركون» لوجود قوة معارضة و منافسة تعمل على ترسيخ نفوذها و سلطتها، و لا ترى في البحث و الاجتهاد سبيلا في ذلك، فراححت تضع المتاريس و العوائق أمام طموحات باحثنا الحداثية. يشير «أركون» أن ندائه الذي أطلقه في السبعينات من أجل التجديد المنهجي في مجال الدراسات الحقيقية على الإسلام ظل بدون صدى يذكر حتى الآن. صحيح أن بعض الباحثين النادرين قدموا أبحاثا في هذا الاتجاه، ولكن نزعة المحافظة المنهجية السائدة في أوساط الاستشراق الكلاسيكي، حالت دون سماع هذا النداء كما ينبغي، يضاف إلى ذلك لامبالاة الباحثين الجزائريين في تجذير الأنثروبولوجيا النقدية كممارسة تحاول الحفر و التفكيك و التنقيب في أصول ثقافات العالم بتنوعها و تعددها دون استثناء¹. و كان من نتائج هذا الرفض أيضا تجلي مواقف معارضة من قبل قوى اجتماعية منافسة، معروفة بدوغمائياتها و تحالفاتها السياسية داخل أو خارج الجامعة، و مراكز البحث، فماذا تتوقعون أن تنتظر من نتائج حداثية أمام أوضاع فاسدة مليئة بالحسابات و تصفية الحسابات، سوى وقوع الوطن في المآزق و الانحرافات و الكوارث الخطيرة، الكل يتفق اليوم على إيديولوجية القرى الفلاحية التي اتبعتها الجزائر المستقلة كانت مجرد قرار سياسي نابع عن عاطفة أبوية لا غير، والكل يدرك أن التعريب في الجزائر لم يكن

سوى نعمة قوموية تحمل زيفها و أوهامها، لم تنتج سوى معرّين عاجزين على أخذ مبادرة البناء و تحرير الوطن من الأمية و الجهل. فوجدناهم يدخلون في صراعات هامشية بمعوية مفرنسين أصوليين محافظين. الأصولية عندنا لا تأخذ معناها الديني فحسب، بل تغدو لاهوية لها فقد يكون دعاة الديمقراطية أنفسهم أصوليون عندما يتشبثون بها و كأنها الحقيقة المطلقة. لم تكن الحداثة عندنا حداثة عارفة، حداثة الفكر و العلم، بقدرما كانت حداثة الركاقة و الابتذال، فما آل إليه الوطن من تمزق و أزمة كان الكل مسؤول عنه دون استثناء. إن الخطابات القومية التي تتكلم عن تحرير الوطن قد غلبت مسألة البناء الإيديولوجي للهوية القومية على الانخراط في الاستكشاف النقدي للماضي، و الملاحظ أن الدولة الوطنية تغافلت نهائيا عن التقدير الفكري لبناء مجتمعاتها، و اهتمت فقط بمد جسور الأسيجة الدوغمائية من ظلامية دينية و فكرية، متعصبة، أنتجت إرهابا فكريا و جسديا لا يزال يعاني منه الوطن الجريح.

الأمر لا يتعلق عندنا بالحركات الإسلامية فقط مثلما يحاول تيار الحركة الديمقراطية الترويج له و الذي ما فتئ تكرار معاداته لـ «الأصولية الدينية» و لكل ما له علاقة بالإسلام السياسي. و نجد أن سياسات التحرير و الاستقلال أنتجت حسب «أركون» نوعية من الوهم، وهم تحرير العالم بواسطة الطبقة العمالية و

1 محمد أركون: الفكر الأصولي و استحالة التأصيل - دار الساقي - ص 202.

وهم المعارف الخاطئة الناتجة عن حادثة غير مفهومة جيدا، أو غير مهضومة كما ينبغي. إن الوضع القائم سببه هذا الانسداد الحاصل نتيجة التهميش المفرط للثقافي، و لدور المعرفي داخل المجتمع. الجزائر. إن ما يكتسح هذا الوطن منذ 1992 يشهد بكل جلاء و مأساوية على الصحة الفلسفية للموقف الذي اتخذته آنذاك و الذي احتقر عندئذ بصفته موقفا حالمًا...¹ لم يكتف المفكر الباحث (محمد أركون) بتشخيص و فهم و تركيب² حركة المجتمعات العربية و الإسلامية بعطاءات الفلسفة الإسلامية أو بالتراث الإسلامي ككل، هذا التراث الذي بلور فيما مضى مفهوم العقلانية و أسس أنوار الحضارة الإسلامية، خاصة ذلك التراث النقدي العقلاني الذي شيده «ابن رشد» و الذي غدت نصوصه مرجعية للفكر الغربي. المسيحي، إلى درجة أننا نجد مدرسة رشدية قائمة بذاتها، في القرون الوسطى، و بالضبط في القرن الثالث عشر أين وجدت مدرسة سميت باسم «العقلانية الرشدية L'avérroisme». لقد استلهم «أركون» بالإضافة إلى ذلك بعض الانفتاحات التاريخية و الديمغرافية، و التحليل نفسية، و نتائج الأنثروبولوجية و السوسيولوجية المعاصرة، إضافة إلى انفتاحه الرائع على فتوحات فلسفة الاختلاف المشتغلة على آليات التأويل، في نقدها لحداثة الغرب. و هذا شأن

«نيتشه» و «هايدغر» «فوكو» «فرانسوا ليوتار» «دريدا» و «بول ريكور» صاحب صراع التأويلات الذي يتخذ «أركون» من منهجيته وسيلة في فهم نصوص التراث، و التي مكنته من فتح دائرة التأويل نحو لانهايتها، و ساهمت بدورها على فهم تلك العلاقة بين الحداثة و الإسلام. إن حادثة الغرب لم تعرف انطلاقتها إلا باحتكاكها مع حادثة الشرق المسلم، فلا يجوز الحديث عن حادثة غربية بمعزل عن تناولنا لعطاءات الحضارة العربية و الإسلامية، و فضلها على الغرب. عطاءات الحداثة الإسلامية التي عرفت توقفها في القرن الثالث عشر، و بفضل الاحتكاك تم التفاعل بين الحداثتين، فكان أن ظهرت أنوار أوروبا في القرن السابع عشر، إنه لا يمكننا الوقوف عند التراث لبناء حادثة متميزة و فريدة، بل ينبغي الانفصال عنه، ف«ابن رشد» حسب «أركون» و إن كان يمثل رمزا من رموز الحداثة في عصره و نفس الأمر يمكن أن ينطبق على صاحب الرسالة (الأمام الشافعي) فإن مثل هذه الشخصيات تغدو بالنسبة لدينا اليوم لا علاقة لها بالحداثة، فهذه الأخيرة لا تنجز إلا في راهنتها. إن الحداثة هي بمثابة لحظة بطولية تشخص الراهن. و براهنها هذا تبدأ حركتها، و تفاعلها مع معطيات الواقع. إننا لربما سنجد أنفسنا مع «أركون» نتجه نحو الحديث عن حداثات بدل حادثة واحدة.

لا يرى «أركون» أنه ثمة مثال و نموذج مطلق للحداثة. فلكل مجتمع

1 ** المرجع نفسه - ص 279.

2 إن التفكيكية تقوم على آليات ثلاث: فهم / تشخيص / تركيب. أنظر علي حرب: العلاقة و الماهية - المركز الثقافي العربي.

حداثته المتميزة، و لا يمكنه ممارستها إلا في ظل خصوصياته الثقافية و الفكرية المنفردة. إن عمل «أركون» النقدي للعقل الإسلامي لا يقف عند محاكاته للحداثة الغربية، كما لا يرى ثمة ضرورة الحديث عن قضايا العقل الإسلامي من منطلق حدائي يحاكي التجربة الغربية. إن هذه التجربة نفسها نجدها عنده معرضة للنقد، إذ لم يتوانى في التوجه إليها باللوم لكونها تعمل على تجاهل الظاهرة الإسلامية، و تغض الطرف عما يحدث من أحداث جد خطيرة داخل المجتمعات العربية الإسلامية، و ما فتئت هذه الحداثة الغربية تقرأ الإسلام قراءة سطحية و واصفة يقدمها أساتذة و علماء الاستشراق الكلاسيكي، و هذا ما جعل «أركون» ينتفض و يثور و بصورة جذرية من داخل الجامعات الغربية الكبرى عن الصورة المتأزمة التي أصبح الغرب يرسخها في أذهان أبنائه عن الإسلام.

إن الحداثة الموجودة في العالم الغربي لا علاقة لها بالحداثة كما ينبغي أن تكون. إننا لا نأمل شيئا من الحداثة، إنها لا تقدم عطاء، فمعها نكتفي فقط بأن تكون رجالا بدون رسالة محددة نقوم بها في هذا العالم المليء بتناقضاته و أوهامه، إلا أننا ينبغي و على الرغم من ذلك التفكير و التأمل و الاكتشاف نفكر فيما نراه و نشعر بأنه من الضروري التفكير فيه و إن أدت أبحاثنا إلى التعجيل فيه بالدمار و الخراب و الانهيار. تحدونا رغبة جامحة في التدمير و التحطيم على ممتلكات الحقيقة المقدمة

(الحداثة)¹ و لأن حركة الزمن لا يمكن أن ترجع إلى السوراء ينبغي أن ننطلق مما توصلت إليه منتجات العلوم الاجتماعية و الإنسانية المعاصرة من حداثة و نقد الحداثة.

إن نقد التراث لا يمكنه أن يمنح لنا حداثة جاهزة، على الرغم من أهمية قراءته و ضرورية فهمه، إلا أننا لا بد أن ننفتح على واقعنا، ف«أركون» بجديته يحسم في مثل أوضاع هذه الأمور، و يلحقها بالراهن و بصورة أدق يحسم للتاريخية، الفكر التاريخي و العقلاني الحديث الذي أدعو كافة العرب و المسلمين إليه، ففيه منجاتهم من الخسران و الضياع و التخلف عن ركب الأمم و التقدم، وهو ليس خارج التراث و السنة و ليس ضد التراث و السنة و إنما من خلال التراث و السنة يدفع الأمور إلى الأمام لكي تصبح فاعلة للاندماج في عصر الحداثة و فكر الحداثة، و عقلانية الحداثة...²

بن لادن، الغرب، و الظاهرة الإسلامية:

أردنا أن نقدم قراءة أركونية حول الظاهرة الإسلامية المعاصرة التي يعرفها اليوم الحدث الكوني Mondialisation ظاهرة بدأت تأخذ طريقها نحو الإنجاز و الاكتمال في تشكيلها، فبعد أن كانت تميز

1 في هذا الصدد أنظر مقالنا: حكاية الحداثة. حكاية الاحكاية - مجلة: فكر و نقد - العدد 33 - السنة الرابعة.

2 أنظر: محمد سبيلا و عبد السلام بينعيد العالي: دقاتر فلسفية - الحداثة - دار توبقال - ص 104.

فقط المجتمعات العربية والإسلامية هاهي اليوم يتوسع انتشارها في جميع أنحاء العالم دون استثناء، ولقد اعتمدنا في رؤيتنا هذه على حادث التفجيرات التي مسّت رمز الغرب ومركزه التكنولوجي المتطور يوم 11 سبتمبر (أيلول) 2001.

إن الحدث جعلنا نؤكد فكرة الصراع الذي دشنته العديد من الكتب المقدمة لتحاليل و استشرافات مستقبلية حول علاقة الغرب، بالحركات الجهادية الإسلامية كظاهرة تميز البلدان الإسلامية. لقد حاولت الترسانة الإعلامية الغربية التهويل من الحدث، و عملت على ترويج فكرة الحرب الصليبية الثانية، بين الغرب المسيحي، و الشرق المسلم، فراحت و عبر وسائلها الضخمة تأجج خطاب المواجهة و العدائية، و منه ضرورة الصدام، و في ظل الوضع المتأزم ارتأينا تناول الحدث بصورة موضوعية متوخين الحذر و عدم التسرع، جاعلين من مناهج العلوم الاجتماعية المعاصرة سبيلا لأجل فقههم الظاهرة، مبتعدين عن النعوتات و التوصيفات التي أضفت هالة التبجيل و التبخير، أو التسطيح و التبخيس على الحدث، و بدون أية اختزالية دفعنا بالظاهرة الراهنة التي يشهدها العالم إلى مواقع البحث و الدراسة الاكتشافية المدعمة بإجرائية الحفر و التنقيب و التفكيك في أعماق الظاهرة بعيدا عن تلك القراءات المتسريعة التي حاولت جر الظاهرة نحو الانغلاقات الإيديولوجية المليئة بالحسابات السياسية، أين

وجدنا العدد من التيارات الفكرية و كعادتها تتسرع في إصدار الأحكام مجانا. على شكل ردود أفعال تتراوح بين الإدانة و الاستنكار، أو الترحيب و التهليل، هذا ما حاولت التكنولوجيا الإعلامية العمل على توزيعه عبر حركة صورها العابرة للقارات بسرعة الضوء. لكن هل يمكننا فهم فعلا ما حدث مؤخرا داخل الولايات المتحدة الأمريكية من منطقيات إيديولوجية؟ هل يمكننا إصدار أحكام سياسية على الظاهرة الإسلامية (الحركة الجهادية) التي أصبحت تعرف انتشارها الواسع ف العالم؟ إنه و لفهم أي ظاهرة ينبغي أن نتجنب الأحكام المسبقة، و التحاليل المتسريعة التي لا تعمل على إيضاح الحدث بقدر ما تزيد من غموضه. إن قراءتنا في ذلك الذي يوزعه الغرب عبر وسائل إعلامه المتطورة إلى أبنائه و إلى المجتمعات الأخرى من ثقافة الوهم، يجعلنا نؤكد أنه لا يضع في إستراتيجيته البراغماطيقية مكانا للآخر الذي يعيش حيث الضفة الأخرى L'autre cap الضفة المحايثة لإقليمه و لصيرورته التاريخية، حركته من حركتها و تقدمه من تقدمها، بدونها لن يكون، لذا كانت المغايرة، و المباينة Differ(a)nce هي بمثابة الاختلاف القائم في الذات لا في ما هو مقابل لها، من يختلف عني كان مني و ليس بعيدا عني، بل هو أقرب إلي من حبل الوريد، لا يتوقع الغرب المهيم و هو يضع إستراتيجياته العسكرية و السياسية هجوما أو عدوانا على جغرافيته بإمكان

القيام بها من قبل الهامشي، المقصى و لربما ذهب الغرب أبعد من ذلك في ترويجه و توزيعه لهيمنتته أين وجدناه يوزع سيمولاكراته Simulacres الإيهامية، عبر صور لامادية، لا هي واقع الشيء العيني، و لا واقعه الذهني، و إنما تتوسط العالمين المادي و المثالي، صور افتراضية Des images virtuelles تحمل صفة الإنتاج «الناعم»، منتوجات إلكترونية يمكن مشاهدتها و قراءتها و التصرف بها عبر الحواسيب و الشبكات...¹ يوحى الغرب و عبر هذه المنتجات لأفراده أن التجديد الوحيد الذي يمكن أن يشكل خطرا على استقرار كيانه، سيكون مصدره من العالم الخارجي، أي من الفضاء، و هذا ما حاولت وسائل الإعلام في السبعينات و أثناء الحرب الباردة الترويج له، و لا تزال عبر الروايات و قصص الخيال العلمي، كما روجت وسائل الإعلام الكبرى، كـ «التلفزيون» «السينما» من خلال ما كانت تنعته بـ «حرب النجوم» La guerre des étoiles كما كان الغرب يتوقع على الدوام زيارات ليلية للصحن الطائرة، و في كل هذا كان يتجاهل أن التهديد بإمكانه أن يأتي من تلك المواقع التي أقصى وجودها من استراتيجياته، فوجد نفسه أمام تهديد من نوع آخر، أين بدأ يتعرض ضربات خطيرة منذ 1998 زعزعت كيانه في العمق.

ننبه هاهنا أنه لسنا أمام انفتاح على جدل، أو سجال قيمي نحكم

1 علي حرب: حديث النهايات - المركز الثقافي العربي - الطبعة الأولى - 2000 - ص 199.

من خلاله على واقع مجتمع متقدم فكريا و تكنولوجيا، لكننا بصدد عتاب و لوم هذا الغرب الذي يتنكر لفضل بعض المجتمعات عليه، و يحاول على الدوام مقابلتهم بلامبالاته المفرطة تجاه المجتمعات الإسلامية التي كان لها الفضل في حسم انتصار الغرب أثناء الحرب الباردة على الشيوعية هجومات عديدة أصابت رمز الليبرالية الجديدة، نفذتها الجماعات الحركات الجهادية الإسلامية، في قلب مركزية الغرب، هجومات أيقضته من غفوته، و جعلته يلتفت إلى تلك الخطابات التي ما فتئت تنتقد الغرب في حديثه و أنواره و التي حاولت أن تخرج ذاكرته المستحيلة القائمة في الغياب، و إظهارها على سطح الحضور، و منه تغدو الكينونة المنسية تكشف حاضرا، و هذا ما عمل فكر الاختلاف على ترسيخه بدءا من «نيتشه» «هيدغر» و «فوكو» «ليوتار» و «جاك دريدا».

لقد بلوروا فكرا ينقد الغرب من عجزته و أنانيته و من مركزيته، لكن استراتيجيات عقل الأنوار حالت دون تخلي الغرب عن مركزيته، فغيب و تناسى خطابات فلاسفة الاختلاف و جعلت منهم هامشا داخل المجتمع. غرباء مثل غرابة الفارماكون الأفلاطوني، لقد دعم الغرب و هو يرسم خطط استراتيجياته المبنية على القوة و الهيمنة حركات الجهاد الإسلامي ماليا، و فكريا، دعمها وهو يجهل خصوصياتها الثقافية و الجوهرية لحقيقة

المجتمعات العربية الإسلامية التي تنتهي إليها هذه الحركات، فوجد نفسه في نهاية المطاف أمام أحداث يصعب على عقل الحداثة فهمها، أو التنبؤ بها، فكل صور المشهد الذي عايشناه مؤخرا من تفجيرات أصابت عمق الغرب المهيمن تدل على أنه لم يكن أحد من استراتيجي الغرب يتوقع حدوث ذلك.

لقد كانت هذه الأحداث الواقعية مدرجة ضمن خيال مخرجي السينما الغربية، و لقد نعتتها القراءات التحليلية بأنها أعمال جنونية نفذها أناس مهولون بالتدمير، باسم المقدس الديني، بالإضافة إلى ذلك نجد قراءات عقلانية حاولت قراءة الوقائع بصورة موضوعية. من بين هذه القراءات تلك التي حاول المفكر المغربي «محمد عابد الجابري». أن يوضح موقفه عبرها. لقد أكد صاحب المسألة الثقافية، و صاحب مشروع نقد العقل العربي أن «بن لادن» «طالب حق».

إن سماع هذه العبارة من قبل مفكر عقلاني، وربما يدهش، لكن علينا أن نؤكد أن الموقف الجابري ينم عن نتائج توصل إليها من خلال قراءته للعولمة، فكان أن جعل تنظيم «بن لادن» الجهادي نتيجة من نتائج عولمة الغرب الإمبريالي. لقد قدم «الجابري» موقفا عقلانيا على حدث ينعت بكونه لا عقلانيا. إن ما قام به تنظيم القاعدة المنضوي تحت لواء إعادة إحياء الفريضة الغائبة، فريضة

الجهاد، و التي أفتى في شأنها قائد التنظيم «أسامة بن لادن» المدعو: «أبو عبد الله». نعتقد أن مثل هذا الحدث يتطلب منا قراءة عقلانية، و نقدية لفهم و بصورة صارمة و علمية هذا الذي حدث، و لربما نهنا هذا الحادث إلى ضرورة إعادة قراءة الذات البشرية، إذ مهما حاول فكر الحداثة أن يبرز جانبا العقلاني، إلا أن واقع البشرية اليوم يقول عكس ذلك، أين أصبح الغرب من الأحداث هو الأكثر فعالية في التغييرات الطارئة بصورة جذرية و مفاجئة في العالم. إنه ينبغي أن نبتعد عن تلك القراءات التي تتخذ من مناهج الاستمرارية في التاريخ بشكل خطي، و أن نتناولها بشكل مغاير. لقد أشار الدكتور «محمد عابد الجابري» في اللقاء الأسبوعي الثقافي المتلفز «مدارات» الذي ينشطه المفكر و الكاتب الجاد و الحيوي الأستاذ «محمد نور الدين أفاية» أن «بن لادن» طالب حق، له دين على الغرب. و كان من المفروض أن يفي بدينه عليه. لقد كانت وعود الغرب الليبرالي كثيرة لمجاهدي أفغانستان، و لتنظيم القاعدة الذي شكله «بن لادن» من متطوعين عرب قدموا إلى أفغانستان لمحاربة الشيوعية المملحة. و لقد مثلت هذه التنظيمات الجهادية عائقا أمام زحف الجيش الأحمر السوفييتي أثناء الحرب الباردة. و لما انتصر الأفغان على توقيف المد الشيوعي داخل أراضيهم، كان لابد أن يلتفت الغرب إليهم و يعمل على تشكيل و بصورة عقلانية أفغانستان لكنه

تنكر لها. وتركها أمام حرب أهلية أتت على الأخضر واليابس، فأصبح وجه أفغانستان تراجيديا أكثر من وقت مضى. و أمام هذا المشهد المأساوي وجد «بن لادن» وتنظيمه القاعدي منعزلين عن الأحداث العالمية التي طغى عليها الحديث عن العولمة و اجتياحاتها، و ما تحققه من فتوحات عظيمة، فكان لزاما عليه أن يوجه ما تبقى من قوة نحو هذا الذي أدار ظهره و تنكر لفضل الأفغان عليه. وهذا ما حدث فعلا. بدأ «بن لادن» تفعيل دعوته إلى المسلمين لتجديد إيمانهم بإحياءهم للفريضة الغائبة (الجهاد Djihad) ضد أولئك الذين سلبوا أرض فلسطين و احتقروا شعب العراق، و جوعوا شعب السودان، و أهانوا شعب ليبيا، و تفهوا شعب اليمن، و عاثوا في أرض العرب و الإسلام فسادا، و منه كانت فتوى الجهاد التي أعلن عليها «بن لادن» في شهر فيفري من عام 1998 تضمن نصها «ضرب اليهود و المسيحيين و المصالح الاستراتيجية الأمريكية داخل أمريكا و خارجها، فوجدت الظاهرة الإسلامية المعاصرة نفسها أمام تبني من طرف الحركات الجهادية. و كان هذه وقفا و صدى عالمي، يكاد يكون كونيا، حيث و بأساليب تكنولوجية الغرب المتطورة تم ضرب و لأول مرة في تاريخه رأسماله الرمزي، من ثقافة، و اقتصاد، و سياسة... و لقد أحسن مفكر العقلانية. «الجابري». تقديم التبريرات التي بنى عليها موقفه الموضوعي، فكلما كان الأمر يتعلق بالإسلام و المسلمين كان للغرب دوره الفاعل

في تحريك الكلام عنه، لأنه في الحقيقة يعتبر منتجه الرئيسي، فالظاهرة الإسلامية المعاصرة أنتجتها مخابر الليبرالية الغربية، و إمبريالياتها، فهي من نتاج عملي و مباشر لصراع الحضارة الغربية مع نتاجها و ثمة ظواهر لحالات عديدة عرفها تاريخ الظاهرة الإسلامية المعاصرة بدءا بالثورة الإيرانية التي احتضنها الغرب في عواصمه الكبرى (باريس) ف«الخميني» قاد ثورته من داخلها، و الأمر نفسه حدث مع ظاهرة العنف الإرهابي الذي عرفته الجزائر. لقد كانت تصلها فتاوى القتل و التدمير من العواصم الغربية. باريس، لندن، نيويورك، برلين. و لقد اتخذ قادة الجماعات الإسلامية منها مقرا لها، و وجدوا الدعم المالي، و الفكري من طرف حكومات هذه الدول، و اليوم نعيش مشهدا مغايرا للظاهرة الإسلامية حيث بدأت تعرف توسعها و انتشارها الملفت للانتباه، فالتفجيرات التي نفذها عناصر من تنظيم القاعدة بقيادة «بن لادن» تدل على عالمية الظاهرة الإسلامية، ف«بن لادن» لم يضرب الغرب بتقنية إسلامية، و لا بعلوم إسلامية، و حتى بعقلية إسلامية، و إنما ضربها يقول «الجابري» بآخر ما أنتجه الغرب من تقنيات، و لربما تدفعنا هذه الحقيقة الواقعية التي لم تكن من نسج الخيال العلمي، إلى تناولها من منظور مناهج العلوم الاجتماعية، و ألا نقف موقفا سياسويا مثلما حاولت بعض الاتجاهات عندنا العمل على تكريسها، فوجدنا العديد من التنظيمات الثقافية،

الأساسية، وهي أن نكف عن إنتاج خطابات معادية للغرب، بل يؤكد «المرزوقي» و على عكس ما ذهب إليه «الجابري» إلى تبرئة الغرب من تهمة المماهة بين الإسلام السياسي و الغرب، و حَقَلَ مسؤولية ذلك إلى العالم الإسلامي الحامل لإيديولوجيا العلمانية الشمولية و المتحالفة مع الأنظمة العسكرية الحاكمة بالإرهاب، و من موقف ينم عن فاعلية، مبتعدا عن ردود أفعال، يطرح «محمد أركون» تصوّره العقلاني النقدي الموضوعي من خلال متابعتة لآخر ما كتبه الغرب عن الإسلام، و الذي يظهر حسب «أركون» أن الغرب بدأ يعترف نسبيا بأهمية دراسة الظاهرة الإسلامية الممثلة في الحركات الجهادية، و هذا ما لاحظته من خلال دراسته التحليلية التي قام بها حول: «الإسلام المعاصر أمام تراثه و العولمة» دراسة يتناول فيها «أركون» ما كتبه المفكر الأمريكي «بنيامين باربير» الذي أصدر كتاب:

Djihad versus mc world mondialisation
et intégrisme contre la démocratie -
Paris —

1996 الذي طرح فكرة الجهاد، معتبرا أنها الآلة المحركة لدور الإسلام في مضادته للعولمة الكاسحة، و المتقدمة تحت اسم «Mc world».

يرى «أركون» و لأول مرة يتجلى لدى مفكري الغرب نوعا من الاعتراف بالإسلام كعنصر تحدي للغرب بعد أن

و المؤسسات الفكرية و الدينية تركض و بشكل هوسي نحو أن تكون الأولى المبادرة إلى الإعلان عن فتاوى على الهوى تقف مع أمريكا، و تعلن دعمها و تحالفها لأجل محاربة أعداء السلام و الديمقراطية و الحداثة الغربية. لكننا ما وجدناهم يوجهون هذه الفتاوى نحو أولئك الذين اقترفوا أبشع الجرائم ضد أبناء الجزائر، فلماذا عندما تعلق الأمر بأمريكا رحنا نعلن عن خطابات التنديد، و التأييد، و بعيدا عن صراخات و عويل التيارات السياسية، نجد نقاشا عقلانيا أدارته بعض الأوساط الفكرية داخل المجتمع العربي، و لربما كان موقف المفكر التونسي «أبو يعرب المرزوقي» يحمل حدائته المتميزة، فوجدناه يرحب و يساند مسعى الغرب في ضربه للإرهاب لأنه و حسب اعتقاده، إنما يعمل (أي الغرب) على المحافظة على مكتسبات الحداثة، لذا كان من الضروري التحالف مع الغرب في مقاومته للإرهاب، بهدف الاستعادة لما اعتبره فرصة تاريخية لحسم مسألة الاندراج المندرج و النسقي في الحداثة و تحقيق شروط الاستقلال الحقيقية، و لربما ننبه هاهنا أن «أبو يعرب المرزوقي» و في تأكيده على مطلب الحداثة المشروط بإزاحة مظاهر اللاعقلانية، من عناصر القتل و التدمير يكون قد أخذ موقفا معرفيا من الأحداث التي عرفها العالم لأنه يحاول أن ينتهز فرصة ما وقع لأجل البدء في بلورة التنوير العربي الإسلامي الحقيقي، و الذي لن يتحقق إلا إذا حسمنا في المسائل

صمت عنه مدة طويلة من الزمن، أين كان الإسلام داخل المجتمعات الغربية يقدم وبصورة مبتذلة و يوزع بشكل محتشم عبر وسائل إعلامها، فالغرب يتكلم عن الحركات الأصولية و هو يفتقر إلى البعد النظري و الابدستيمولوجي الواضح.

إنه يتحدث حسب «أركون» بشكل ممل و مكرر عن نفس الشيء، أي الإسلام الأقمومي *islam comme prototype* L'، فالباحث الغربي يعتقد أن الإسلام مسؤول عن كل شيء يحصل في المجتمعات الإسلامية أو العربية، و حتى العالمية. إنه يتحدث عن الإسلام بالحرف الكبير *Islam* لا بالحرف الصغير *islam* لكي نقول بأنه عمل فوق طبيعي، أو خارج الطبيعة يؤثر على كل شيء و لا يتأثر بأي شيء، إنه يتحدث عنها وكأنها المرجعية القصوى و الأخيرة لكل فكر و لكل سلوك يحصل في المجتمعات الإسلامية، و هاهو اليوم و بعد أن عرف العنف و الإرهاب تأججهما و استفحالهما ليمس حتى الدول التي احتضنته. بدأ الغرب يشعر بالخطر و التهديد، و منه يمكننا أن نعتبر و على سبيل المثال لا الحصر أن كتاب «بنيامين» هو بمثابة المؤشر على هذه التحولات في الإعلان عن ضرورة فهم حقيقة الإسلام و حركاته الجهادية، ذلك أن الأمر لا يتعلق بمسألة صراع حضارات مثلما اعتقد «صمويل هينتينغتن» بقدرما يتعلق بصراع الحضارة الغربية مع نتاجها، فالغرب أنتج العولمة و سلاحها تعرض

لتهديد و لا يزال من طرف حركات تربة في جامعاته و مؤسساته العسكرية...